

علاقة الأمير عبد القادر بالأسر المحلية الحاكمة في بايلك

الشرق الجزائري – أسرة أولاد مقران نموذجا

بقلم: د. لخضر بوطبة

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

ملخص:

مما لا شك فيه أن الأمير عبد القادر كان محاربا شرسا كما كان سياسيا محنكا وقائدا عسكريا فذا، ولعل احترافيته في المجالين العسكري والدبلوماسي جعلت القادة الفرنسيين الذين كانوا يواجهونه يحترمونه ويقدرونه إيما تقدير، ويحسبون له ألف حساب، فقد أخلط أوراقهم وأفسد مخططاتهم في العديد من المرات، فأدركوا أنهم يتعاملون مع رجل بارع، فكانوا يتوخون الحيطة والحذر في التعامل معه. وكان للأمير عبد القادر أهدافه الاستراتيجية كما كان للفرنسيين أهدافهم، من وراء عقدهم معاهدتي ديميشال والتافنة¹، فاغتتم الأمير عبد القادر الفرصة لتنظيم دولته وإعادة ترتيب البيت، فأجرى اتصالات عديدة مع زعماء القبائل وشيوخ الأسر الكبيرة التي كانت تتمتع بنفوذ كبير وتتحكم في مناطق واسعة من بايلك الشرق الجزائري. تعتبر أسرة المقراني من أبرز الأسر التي سعى الأمير عبد القادر إلى التقرب منها قصد الاستفادة من قوتها ونفوذها.

في 26 فبراير 1834، بين الأمير والجنرال الفرنسي ديميشال الذي Desmichels - انعقدت معاهدة ديميشال¹

حملت المعاهدة اسمه.

ومعاهدة التافنة في 30 ماي 1837 بوادي التافنة بالقرب من تلمسان. مع الجنرال بيجو.

لمزيد من التفاصيل راجع، هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتعليق، أبو القاسم سعد الله،

ش و ن ت، الجزائر، 1982.

تمهيد:

تعد أسرة أولاد مقران من أهم تلك الأسر التي كانت تتمتع بنفوذ كبير في ظل الحكم العثماني والمرحلة الأولى من الاحتلال الفرنسي. وعندما تعرضت الجزائر للحملة الفرنسية التي أطاحت بالحكم العثماني في الجزائر كانت أسرة أولاد مقران تعاني الانقسام والتمزق، بسبب صراع شيوخها على الحكم، ذلك الصراع الذي استغله الحكام العثمانيين ومن بعدهم الفرنسيين في إضعاف الأسرة والقضاء عليها وفق مبدأ فرق تسد، ومن المؤكد أن الأمير عبد القادر لم يكن يخفى عليه الوضع الذي آلت إليه أسرة أولاد مقران، وكان يدرك أنه على الرغم من الصراع والانقسام الذي كانت تمر به الأسرة إلا أنها لا تزال تتمتع بسمعة كبيرة وبنفوذ وسلطة لدى سكان المنطقة المترامية الأطراف التي كانت تابعة لحكم الأسرة، فكان يدرك النتائج التي يمكن أن تترتب عن انضمام شيوخ الأسرة إلى منطقة نفوذه ومن ثمة تعزيز قوته واتساع نطاق دولته الناشئة.

سنحاول من خلال هذا المقال التطرق إلى علاقة الأمير عبد القادر بأسرة أولاد مقران، واتصالاته بشيوخها، وموقف هذه الأخيرة من الأمير، وهل أدى ظهور الأمير في المنطقة إلى اتحاد الأسرة أم زاد من حدة النزاع والخلاف بين شيوخها، وهل سعى الأمير عبد القادر إلى الإصلاح بين شيوخها أم ساهم في ازدياد الفرقة والشقاق فيما بينهم؟، وهل كان لعلاقة شيوخ الأسرة بأحمد باي تأثير على علاقة الأمير بهم؟

وقبل الخوض في الموضوع تجدر الإشارة إلى الدور الذي لعبته الأسر المحلية في بايلك الشرق الجزائري في تكريس الحكم العثماني، منذ ظهور الأتراك العثمانيين في شمال إفريقيا في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، حيث تشير المصادر إلى أن الإخوة بربروس (إسحاق وعروج وخير الدين)¹، كان أول من اتصلوا به المرابطين (رجال الدين) والعائلات الكبيرة، من أجل تنفيذ مشروعهم الرامي إلى تطهير السواحل الجزائرية من الغزاة الإسبان في إطار الجهاد المنظم حينئذ ضد الكفار المعتدين. فانعقد التحالف الذي استمر طوال فترة الحكم العثماني بين السلطة العثمانية وهذه الأسر، وكانت أسرة بن القاضي في جرجرة أولى الأسر المحلية التي تحالفت مع

¹ - كان الإخوة بربروس أربعة: إلياس وعروج وخير الدين وإسحاق، أبوهم يعقوب وأمهم نصرانية اعتنقت الإسلام، وهم من جزير ميدلي، كانوا في البداية يشتغلون في التجارة وكان والدهم صانع الفخار، ثم تحولوا إلى مجاهدين متخذين من البحر ميدانا لنشاطهم ضد القراصنة المسيحيين. لمزيد من التفاصيل أنظر: مجهول المؤلف: غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر، الجزائر، 1934. أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة عام بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، ش.و.ن.ت، الجزائر، بدون تاريخ

العثمانيين¹، والملاحظة التي يجب التنبيه لها قد هي أن الحكم العثماني في الجزائر قام أساساً على الدور الذي لعبته هذه الأسر وكذا بعض الشيوخ الدينيين² في تمكين العثمانيين من تأسيس دولة حديثة استمرت لمدة ثلاثة قرون وعشر سنوات (1520-1830م)³. وقد اعتمد الفرنسيون بعد تمكنهم من احتلال جزء من البلاد الجزائرية بداية من شهر جويلية 1830⁴ على التقاليد الحكم العثماني فيما يتعلق بالأرياف، فحاول سلطات الاحتلال استمالة القبائل الكبيرة والأسر النافذة إلى جانبها من خلال إغراءها بالامتيازات،

¹ - تناولت الباحثة جميلة معاشي بالدراسة والتحليل الأسر المحلية ذات النفوذ الكبير في بايلك الشرق الجزائري في رسالة ماجستير موسومة ب:

الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري، من القرن ال16، إلى القرن ال19، رسالة ماجستير معهد العلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 1990/1991.

² - كان الشيخ أحمد بن القاضي رجل يجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية، حيث كان زعيم مملكة كوكو التي تأسست في مطلع القرن السادس عشر بعد سقوط بجاية بين أيدي الإسبان سنة 1510. ومن الشيوخ الدينيين الذين اعتمد عليهم العثمانيين وكانوا عوناً لهم في تأسيس الدولة نذكر الولي الشهير أحمد بن يوسف الملياني وابن شعاعة.

³ - تأسست الدولة الجزائرية الحديثة على يد خير الدين بربروس بعد أن كان أخاه عروج قد أرسى قواعدهما لكنه استشهد في إحدى المعارك مع الإسبان في نواحي تلمسان بالتواطؤ مع الملك الزياني أبوحمو موسى الثالث.

⁴ - يندرج الاحتلال الفرنسي للجزائر ضمن مشروع أوروبي لتصفية ممتلكات الدولة العثمانية، كما يندرج في الوقت ذاته ضمن التنافس الاستعماري الأوروبي الذي بدأت ملامحه مع مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، كنتيجة للتغيرات الحاصلة في القارة الأوروبية والتي كانت نتاجاً للثورة الصناعية التي ساهمت بدورها في ظهور هذا التنافس، لمزيد من التفاصيل حول الأوضاع في أوروبا في مطلع القرن التاسع عشر والأحداث التي عرفتها فيما بعد أنظر:

- عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعي: التاريخ المعاصر-أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2014.

ثمة كتابات ودراسات جزائرية وأجنبية كثيرة تناولت حدث الاحتلال الفرنسي للجزائر نحيل القارئ على بعضها:

- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، م. و. ك، الجزائر، 1992.

- شارل رويبر أجرون: تاريخ الجزائر المعاصرة، ج2، من انتفاضة 1871 إلى اندلاع حرب التحرير 1954، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.

- محمد العربي الزبيري: تاريخ الجزائر المعاصر، ج1، منشورات اتحاد الكتاب العرب، القاهرة، 1999.

- عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج4.

وإشراكها في الحكم نظراً لقوتها ونفوذها الضارب في التاريخ¹ وفي السياق ذاته قامت دولة الأمير عبد القادر الذي كان عارفاً بخبايا الحكم والتركيبية الاجتماعية والسياسية في الجزائر إبان الحكم العثماني الذي كان ساخطاً عليه مدركاً لمساوئه²، فاستند حكمه كذلك إلى القبيلة كوحدة سياسية واجتماعية متلاحمة، فارتكزت سياسته على التقرب من الشيوخ القبائل والأسر الكبيرة حتى لا ترتمي بين أحضان السلطات الاستعمارية، أو تعود إلى رشدها وتنظم إلى دولته وتفسخ عقدها مع الاستعمار، ولقد كان ذلك من الصعوبة بمكان، حيث لم يكن الأمير عبد القادر يواجه عدواً واحداً فقط وهو العدو الفرنسي المحتل، بل واجه أعداءً أكثر³ لم يفلح في إقناعهم بمشروعه الكبير المتمثل في إقامة دولة عربية على أنقاض الدولة العثمانية التركية البائدة، كما أن بعض شيوخ القبائل وشيوخ الزوايا والطرق الصوفية طغت عليهم المصلحة الشخصية فلم يتفاعلوا مع مشروع الأمير حيث نجحت فرنسا في استمالتهم إليها كشيخ الطريقة التيجانية على سبيل المثال⁴، وقد كان لهذه الصعوبات التي واجهها دور في سعيه إلى عقد الهدنة والصلح مع العدو حتى يتسنى له ترتيب بيته وتنظيم شؤونه العسكرية والسياسية.

1- نبذة تاريخية عن أسرة أولاد مقران:

أسرة أولاد مقران هي واحدة من الأسر المحلية الكبيرة في بايلك الشرق الجزائري، تمكنت من تأسيس مملكة أو إمارة في قلعة بني عباس في أعالي جبال البيبان في مطلع القرن السادس عشر، وبعد أن كان شيوخها من أعداء الأتراك في بداية تواجدهم بالجزائر صاروا حلفاء لهم، ولعبوا دوراً أساسياً في تمكين الحكام الأتراك من بسط نفوذهم في بايلك الشرق،

¹ - أنظر جميلة معاشي: المرجع السابق.

² - أنظر: ناصر الدين سعيدوني: عصر الأمير عبد القادر، مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2000.

³ - فبالإضافة إلى العدو الفرنسي كان يحارب القبائل والأعراس المتعاونة معه، قصد إخضاعها، وكان يحارب القبائل المناوئة له قصد توحيد الصفوف لمواجهة العدو الحقيقي الغاصب، كما حارب سلطان المغرب مولاي عبد الرحمان بعد الضغوط التي تعرض لها من جانب فرنسا، ولذلك فقد عانى الأمير عبد القادر في سبيل توحيد الصفوف وإرساء قواعد دولته التي وضع لها أهدافاً ثابتة، غير أن خذلانه من طرف قومه، وتآمر العدو الذي نجح في تأليب بعض القبائل ضده حال دون تحقيق تلك الأهداف. للتعرف أكثر على هذه الأهداف راجع، عمار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، ص 108-109.

⁴ - أنظر هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ص 126.

وقد اتسمت سياسة الحكام الأتراك اتجاه الأسر الكبيرة والقبائل ذات النفوذ في الجزائر على العموم بتركها تمارس السلطة والنفوذ الذي كانت تتمتع به من قبل دون التدخل في شؤونها الداخلية، كما عملوا على التقرب من شيوخ الأسر الكبيرة وزعماء القبائل النافذة بغية الاستفادة من خدماتها وضمها دون الدخول معها في صراع قد لا يكون في صالح الحكام الأتراك.

2- أوضاع الأسرة في أواخر العهد العثماني:

نتيجة للفتنة التي مرت بها إمارة بني عباس وأدت إلى نهاية حكمها بقلعة بني عباس، إثر مقتل آخر أمراءها سيدي ناصر عام 1600م¹، فضل إبنه الأكبر سيدي بتقة² التوجه إلى منطقة مجانة³ حيث استمر حكم الأسرة حتى بعد مجيء الفرنسيين، وفضل هذا الإبن لقب الشيخ على الأمير أو السلطان مؤسساً بذلك مشيخة المقرانيين بمجانة، ولم تفصح لنا المصادر التي اطلعنا عليها عن الأسباب الحقيقية التي دفعته إلى هذا التغيير.

وكانت أسرة أولاد مقران في ظل حكم المشيخة تتمتع بسلطة ونفوذ كبيرين في المنطقة الغربية لبايك الشرق، فقد جمعت الأسرة بين النفوذ الديني الذي استمدته من انتسابها إلى الأشراف حسب بعض الروايات⁴، والنفوذ الدنيوي المتمثل في امتلاكها أراضي شاسعة وجيش مما جعل تأثيرها على سكان المنطقة قويا وهذا ما يفسر حرص الأتراك ومن بعدهم الفرنسيين على التحالف مع شيوخ الأسرة سواء عندما كانت في قلعة بني عباس أو بعد انتقالها إلى مجانة.

¹ - أسست الأسرة إمارة في قلعة بني عباس في إحدى قمم جبال البيبان (أبواب الحديد)، في حوالي سنة 1510 وذلك بعد سقوط بجاية في أيدي الإسبان، وربطت في البداية علاقات تحالف مع الحامية الإسبانية، لكن قوة السلطة العثمانية التي أسست إيالة الجزائر أرغمت سلطان هذه الإمارة على فسخ تحالفه مع العدو الإسباني وربطته بها عن طريق التحالف، وساهمت الإمارة كثيرا في تكريس الحكم العثماني في الجزائر، وتميزت بعد ذلك العلاقات بين الطرفين بين مد وجزر، حتى وقعت فتنة داخل الإمارة أدت إلى مقتل آخر سلاطينها سيدي ناصر. لمزيد من التفاصيل راجع، لخضر بوطبة: أسرة أولاد مقران خلال العهد العثماني (1837- 1518)، رسالة ماجستير (غ.م)، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة 2006.

² - ترك سيدي ناصر خمسة أبناء أكبرهم يدعى سيدي بتقة أو أبو التقى.

³ - هي مدينة تقع شمال شرق مدينة برج بوعريج وتبعد عنها بـ 10 كلم.

⁴ - أنظر محمد بن الحسين الورتلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورتلانية، أنظر كذلك ابن فرحون:

وعلى أية حال فشيوخ الأسرة دخلوا في صراع دموي فيما بينهم¹ الأمر الذي انعكس سلبا على مكانة الأسرة وسمعتها سواء تحت الحكم العثماني أو في فترة بداية الاحتلال.

3- موقف المقرانيين من الاحتلال الفرنسي:

إن الحديث عن موقف المقرانيين من الاحتلال الفرنسي مرتبط ارتباطا وثيقا بعلاقتهم مع الحاج أحمد باي، فكان لزاما علينا أن نتناول موقف هذه الأسرة في ذات السياق. قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830،² كانت أسرة أولاد مقران تعاني الضعف والانقسام بسبب الحروب التي نشبت بين زعماءها منذ زمن بعيد كما سبق ذكره، والتي تسببت في انقسام الأسرة إلى عدة فروع أو صفوف متناحرة، حيث كان كل صف يرى أنه الأحق والأجدر بحكم مشيخة مجانية، وكان الحكام الأتراك يعملون باستمرار على تغذية ذلك الصراع من أجل السيطرة على الأسرة، وفق المبدأ الشهير "لرق تسد" وسار الفرنسيون على نفس المنوال فيما بعد.

4- موقف المقرانيين من مقاومة الحاج أحمد باي:

يعتبر الحاج أحمد باي³ من أشهر البايات الذين حكموا بايلك قسنطينة، تم تعيينه من طرف الداوي حسين عام 1826، وهو آخر من حكم البايك، ودام حكمه إلى غاية سقوط مدينة قسنطينة في أيدي الفرنسيين عام 1837.

¹ Charles Féraud: « Histoire des villes de Constantine – Bordj Bou Arreridj », in, R. S. A. C, Constantine, 1872, p264.

² لمزيد من التفاصيل حول الحملة الفرنسية راجع، أرجمند كوران: السياسة العثمانية اتجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ترجمة عبد الجليل التميمي، ط2، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1970. وكذلك، حمدان خوجة: المصدر. وعبد الجليل التميمي: بحوث ووثائق في التاريخ المغربي (1816-1871)، ط1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972. أنظر كذلك:

-Pierre Boyer: « la Conquête de l'Algérie », in, Initiation à l'Algérie, Librairie . d'Amérique et d'Orient, Paris, 1957.

³ حول شخصية أحمد باي وحكمه للبايلك أنظر:

- محمد العربي الزبيري: مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، م و ن ت، الجزائر، 1973. أنظر كذلك:

- صالح فركوس: صالح فركوس: الحاج أحمد باي قسنطينة (1823-1850)، د م ج، الجزائر، 1993. وأيضا:

عندما نصب هذا الباي على رأس بايلك قسنطينة استبشر أولاد مقران خيرا، واعتقدوا أنه حان الوقت للتوقف عن الصراعات والحروب التي أنهكتهم، وأن تدخل الأتراك في شؤون المشيخة سيتوقف، وذلك لعلاقة المصاهرة التي كانت تجمعهم به، فهو بالنسبة إليهم حفيد وصهر في آن واحد¹ وكان حكم مجانية بيد ابن عبد الله من فرع أولاد الحاج، غير أن فرحة أولاد مقران لم تدم طويلا، إذ أن أول عمل قام به أحمد باي قيامه بإلقاء القبض على ثلاثة شيوخ من الأسرة أن يرى أنهم مصدر الاضطراب والفوضى والفتن التي كانت تعيشها المنطقة، وهؤلاء الشيوخ هم:

الحاج محمد بن عبد السلام وهو صهره² وسي الباي الونوغي، من فرع أولاد بورنان، وصالح بن القندوز من أولاد القندوز، وحكم عليهم بالإعدام، لكنه أطلق سراح صهره بعد الرسالة التي وجهها له ابن عبد الله³ كبير الأسرة وشيخ مجانية، وتدخل والدته الحاجة رقية وتوسل زوجته عيشوش، ثم نجا سي الباي الونوغي من الموت بتدخل من حاشية الباي، فيما نفذ حكم الإعدام في حق صالح بن القندوز⁴.

ويبدو أن الباي أراد أن يفتح عهده بالصرامة في تنفيذ السلطة الفعلية بالمنطقة⁵ أو ربما أراد أن يتخلص من الضريبة التي كان أولاد مقران يفرضونها على الأتراك كما يذكر مولود قايد⁶. ولم ينتهج الباي سياسة واحدة مع الأسرة، في ظل الصراعات والحروب التي مزقت وحدتها، فكان يدفع المال لأتباعه لاستمرار الفتن والصراع بين شيوخ الأسرة⁷.

- Marcel Emrit: « les mémoires d'Ahmed Bey dernier Bey de Constantine », in, R.A, n:°8, 1863.

وكذلك:

- Temimi, A. Djallil: le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey, (1830-1837), Tunis, 1978.

¹ - أنظر موضوع المصاهرة في نفس الفصل.

² - كان الباي متزوج من ابنته عيشوش.

³ - عاتب ابن عبد الله الباي على فعله، واخبره بأنه خيب ظن الأسرة التي استبشرت خيرا وفرحت بتعيينه على رأس البايك، عندما أقدم على القبض على ثلاثة من شيوخ الأسرة. أنظر نص الرسالة كاملا في: Féraud: op. cit, p300.

⁴ - Féraud: op. cit, p298.

⁵ - جميلة معاشي: المرجع نفسه، ص304.

⁶ - Gaid: **chronique des Beys de Constantine**, p 94.

⁷ - L. Babes: op. cit, p15

وقد أثار أحمد باي عندما أقدم على اعتقال ثلاثة شيوخ من الأسرة واغتيال أحدهم، هيجان كل فروع الأسرة وخاصة فرع أولاد القندوز الذين تحالفوا مع أولاد بورنان وأعلنوا الثورة ضده، فاضطر للخروج لقتالهم لكنه انهزم و انسحب بعد أن خسر مائة وخمسون (150) بغلا محملاً بالمتونة والذخيرة ببرج زمورة وعاد مسرعاً إلى قسنطينة¹.

غير أن الصراع سرعان ما دب بين الفرعين المذكورين اللذان أنهكتهما الحروب والهزائم فضلاً الانسحاب إلى الجبال في انتظار الفرصة السانحة للعودة إلى مجانية، وبذلك استأثر فرع أولاد عبد السلام وأولاد الحاج بمشيخة مجانية، إلا أن التنافس بين محمد بن عبد السلام وأحمد بن محمد انفجر عندما أسند ابن عبد الله شيخ مجانية عملية تحصيل الضرائب بمنطقة الونوغة لمحمد بن عبد السلام مما أثار غيرة وطمع خصمه أحمد بن محمد الذي طلب من الباي تنصيبه على قيادة خليل فأجابه الباي لطلبه، الأمر الذي لم يعجب ابن عبد الله لأنه اعتبر ذلك تبعية مباشرة للباي، وهذا ينقص من نفوذ المشيخة، وطلب من أحمد بن محمد رفض المنصب واعداء إياه بإشراكه في حكم مجانية، لكنه لم يجبه لطلبه²، وربما هدف الباي بسياسته هذه إلى إضعاف الأسرة والعمل على استمرار الصراع بين شيوخها.

وعندما سافر أحمد باي إلى مدينة الجزائر عام 1827، لأداء واجب الدنوش كان بمرافقته أحمد بن محمد³، وأثناء عودته إلى قسنطينة قطعت عليه قبائل التيطري بسور الغزلان طريق العودة فأضطر الباي إلى قتالهم وأظهر أحمد بن محمد شجاعة كبيرة وإخلاص في الوقوف إلى جانبه، وأبلى بلاء حسناً في الدفاع عنه⁴، فوعده الباي بمكافأته حال عودته إلى قسنطينة، فأنتمز أحمد بن محمد هذه الفرصة الثمينة وطلب من الباي منحه وظيفة تحصيل الضرائب بمنطقة الونوغة، وهو المنصب الذي كان يشغله ابن عمه وخصمه محمد بن عبد السلام، وأمره بالقبض على هذا الأخير في حالة رفضه الانصياع لأمر الباي، وعندما علم ابن عبد السلام بالأمر لجأ هارباً إلى سور الغزلان حيث كان يقيم صديقه عدو الباي يحي آغا، ونظماً معاً هجوماً فاشلاً على مجانية بهدف الاستيلاء عليها منتهزين فرصة غياب الخليفة أحمد بن محمد، لكن فرسان الحشم وأبناء الخليفة رغم حداثة سنهم دافعوا بشجاعة عن مجانية حتى عودته إليها⁵.

¹ - Rinn: op. cit, p15.

² - Féraud: op. cit, p301.

³ - محمد العربي الزبيري: المرجع نفسه، ص 11.

⁴ - Gouvion : op. cit, p69.

⁵ - Féraud : op. cit, p302.

ومن الملاحظ أن أحمد باي قد أنحاز إلى جانب فرع أولاد الحاج المتحالفين مع أولاد عبد السلام، وهو الصف الوحيد الذي ظل يلعب الدور السياسي بالمنطقة، والتصدي لخصومهم من أولاد القندوز وأولاد بورنان، وقد ظل شيوخ الأسرة في صراع وقتال لم ينه سوى نداء الجهاد الذي وجهه الداوي حسين إلى كل قبائل الإيالة للدفاع عن مدينة الجزائر ضد الحملة الفرنسية عام 1830.

وعندما نادى الداوي حسين كل القبائل والأسر الكبيرة للدفاع عن مدينة الجزائر ضد الحملة الفرنسية¹، تناسى أولاد مقران أحقادهم وتركوا صراعمهم وهبوا جميعاً لتلبية نداء الداوي، ودعا بن عبد الله كبير الأسرة وشيخ مجانة آنذاك الأسرة إلى تكوين القوم² وأسند قيادته إلى كل من محمد بن عبد السلام وأحمد بن محمد، وبقي هو بمجانة بسبب سنه المتقدم، وسار القوم من أولاد مقران مع صهرهم الحاج أحمد باي³ إلى مدينة الجزائر، وكانت مشاركتهم في صد الحملة الفرنسية فعالة بشهادة الفرنسيين أنفسهم الذين ذكروا أن دور فرسانهم كان بارزاً في معركة سيدي فرج، وأن الفرنسيين عانوا كثيراً من مقاومتهم الباسلة⁴.

ولما سقطت مدينة الجزائر في أيدي الفرنسيين عاد أحمد باي ومعه أولاد مقران، إلى قسنطينة فرافقه أحمد بن محمد وكان إلى جانبه يدافع عنه ضد أعداءه، وعندما دخل منطقة البيبان اعترض سبيله ابن القندوز المقراني على رأس قوة كبيرة من القبائل الحاقدة على الباوي وهي: أولاد عامر، أولاد عبد النور، التلاغمة، ريغة القبالة، وقبائل فج مزالة (فرجيوة)⁵، ولكن الباوي تمكن من الإفلات منه باستخدام الحيلة والمكر، حيث كتب رسالة إلى

¹ - عمارهلال: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1962)، د. م. ج. الجزائر، 1995.

² - القوم هي قوة إضافية محلية توفرها القبائل للبايلك عند الحاجة.

³ - من دهاء أحمد باي أن صاهر العديد من الأسر القوية في بايلكه فتزوج من عيشوش ابنة عبد السلام المقراني حتى يتمكن من حكم الجهة الغربية من بايلك الشرق التي كانت تحت نفوذ وسلطة أولاد مقران، كما صاهر أسرة بن قانة شيوخ العرب حكام الصحراء، وصاهر كذلك أسرة بوعكاز حكام فرجيوة وغيرها لمزيد من المعلومات حول الموضوع راجع، جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري، من القرن ال16، إلى القرن ال19، رسالة ماجستير معهد العلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 1990/1991.

⁴ - Ch. Féraud: op. cit, p304.

أنظر كذلك، يحي بوعزبز: كفاح الجزائر، م. و. ك. الجزائر، 1986.

⁵ - Louis Rinn: Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, Librairie Adolphe Jordan, Alger, 1891, p 15.

ابن القندوز يعده فيها بتنصيبه على مشيخة مجانية إن توقف عن القتال، ودعاه إلى لقاءه في خيمته بمجانة، فلما حضر قام بإلقاء القبض عليه، فزاد ذلك من نقمة السكان وثورتهم، وتمكنوا من اللحاق به رغم فراره، وبينما نزل أحمد باي ضيفاً على قبيلة أولاد عبد النور، وكان شيخ هذه القبيلة صهر أسير الباي، تمكنت ابنته (زوجة الأسير) من إثارة القبيلة ضد الباي لإطلاق سراح زوجها¹.

وفي وسط عدد كبير من الثائرين الحاقدين على الباي، تمكن من النجاة وللمرة الثانية بأعجوبة من موت محق، إذ مكنته حيلته ودهائه من الفرار من الأعداء بعد أن قتل بن القندوز شنقاً، وأسرع بطلب النجدة من أخواله أولاد بن قانة، وقد تمكن الثائرين من اللحاق به وكان عددهم كبير يستحيل على الباي وأتباعه التغلب عليهم، ومن حسن حظ الباي أن وصول أولاد بن قانة بقوة كبيرة لإنقاذه في الوقت المناسب، وتمكنوا من تفريق أعداءه².

ويبدو أن متاعب الباي لم تنته بعد، فلما وصل إلى أبواب مدينة قسنطينة فوجئ بانقلاب الانكشارية عليه حيث قاموا بتعيين محمود بن شاكرا باي ومنعوا الباي من دخول المدينة لكنه تمكن من دخولها بفضل براعة والدته الحاجة رقية التي حصلت على فتوة من علماء المدينة لفتح أبواب المدينة أمام الباي³، وبعد أن تمكن الباي من العودة إلى مقر حكمه وانتقم من المتآمرين عليه، خرج لعقاب القبائل الثائرة من أولاد مقران بزعامه صهره محمد ابن عبد السلام وشيخ مجانية ابن عبد الله، وكان صف ابن عبد السلام يتكون من قبائل: وأولاد بلس، أولاد ماضي، أولاد موصلبي، أولاد بوضياف وأولاد عبد النور التلاغمة وريغة الظهارة، لكنه لم يتمكن من إخضاعها وعاد إلى قسنطينة⁴.

ولم يكد الباي من التحرر من قبضة الثائرين حتى سمع بحركة تمرد تزعمها الباي الأسبق إبراهيم الكريتي⁵ الذي يبدو أنه أراد أن يغتنم الفوضى التي عمت البلاد بعد الاحتلال الفرنسي، حيث جمع القبائل الحاقدة على الباي، مدعياً أن الفرنسيين عينوه بايا على

¹ - Mouloud Gaid : Mokrani, édition Andalouse, Alger, 1993, p38.

² - Féraud: op. cit, p310.

³ - Rinn, op. cit, p18.

⁴ - Féraud: op. cit, p307.

⁵ - وأصله من جزيرة كريت، حكم بايلك قسنطينة لمدة سنتين وستة أشهر (من شهر جويلية 1822م إلى ديسمبر 1824م)، عزل من طرف الداى حسين لمزيد من المعلومات راجع، أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، م. و. ك، الجزائر، 1992، ص145 ومايلها.

قسطنطينة¹، وكان بن عبد السلام المقراني ومقورة بن عاشور شيخ فرجيووة، من بين الذين التفوا حوله وسار بهم في اتجاه قسنطينة، وفي طريقه خيم عند قبيلة أولاد عبد النور ثم التحق بهم فرحات بن سعيد على رأس قوة كبيرة من عرب الصحراء، فخرج الباي لقتالهم، وعندما علم أحمد باي بكثرة عددهم ففكر في حيلة لتفريق صفوفهم وإضعاف قوتهم فهداه دهاؤه إلى توزيع المال على شيخ قبيلة أولاد سحنون مقابل سحب جيشه ففعل هذا الأخير، فلما رأى إبراهيم الكريتلي جيشه بدأ يتفرق اضطر إلى الانسحاب مع ما بقي معه من المقاتلين، فخرج الباي أحمد منتصراً من هذه المعركة².

يبدو أن محمد بن عبد السلام لم يكن راضياً على سياسة صهره الحاج أحمد باي الذي أسند مشيخة مجانة³ إلى عدوه ومنافسه أحمد بن محمد، ولا نجد هنا تفسيراً وجهاً لانحياز أحمد باي إلى جانب أحمد بن محمد، غير أن أغلب المؤرخين يرجعون سبب ذلك إلى استماتة أحمد بن محمد في القتال دفاعاً عن الباي ضد قبائل التيطري الذين اعترضوا سبيله حينما كان عائداً من مدينة الجزائر إلى عاصمة إقليمه، فكافأه الباي على ذلك بتوليته مشيخة مجانة، وقد دفع هذا التعيين محمد بن عبد السلام إلى إقدامه على الانتقام من صهره فكان على رأس مجموعة من الشيوخ تتألف من: صالح بن يلس شيخ أولاد عامر وفرحات بن سعيد⁴ وبوعكاز بن عاشور⁵ وشيخ أولاد ماضي سي بوضياف، حيث اتصلت هذه المجموعة بالحاكم برثيزين (Berthézène) بمدينة الجزائر تعرض عليه استعدادها للاستسلام والتعاون مع الفرنسيين مع كل القبائل التي تحت زعامتها للإطاحة بأحمد باي،⁶ ويذكر فيرو أن الفرنسيين لم يردوا على رسالتهم بسبب انشغالهم بأحداث الحملة والصعوبات التي واجهوها⁷.

¹ - حميدة عميراوي: دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية (1827- 1840)، ط1، دار البعث، قسنطينة، 1987، ص133.

² - Féraud: op. cit, p309.

³ - وذلك بعد وفاة الشيخ ابن عبد الله في عام 1830م.

⁴ - عزله الباي أحمد من مشيخة عرب الصحراء وعين مكانه صهره الحاج بوعزيز بن قانة، فأصبح من أعداءه، واتصل بالفرنسيين وأعلن خضوعه لهم واستعداده للتعاون معهم للإطاحة بأحمد.

⁵ - تحول إلى عدو ومحارب للباي أحمد لأنه قام بعزله من مشيخة فرجيووة.

⁶ - Gouvion: op. cit, p70.

أنظر كذلك، حميدة عميراوي: المرجع نفسه، ص198.

⁷ - Féraud: op. cit, p310.

أما مرسي فيذكر أن اتصال هذه الجماعة بالفرنسيين كان عام 1837 وليس كما ذكر كل من رين وفيرو¹، لكنه لم يذكر لنا هل كان ذلك قبل احتلال الفرنسيين لقسنطينة أم بعده؟ وعندما يئس محمد بن عبد السلام من مساعدة الفرنسيين له للانتقام من صهره أحمد باي، وجه أنظاره نحو باي تونس وكتب له يعرض عليه التحالف معه للقضاء على أحمد باي وغزو البايك، ولسوء حظه أن الباي أحمد علم بتلك المراسلة، وتمكن من القبض عليه، وكاد أن يقتله لولا توسلات زوجته عيشوش (ابنة محمد بن عبد السلام)، فاكتفى بوضعه في سجن القصبة².

وبرجعنا إلى مذكرات الحاج أحمد باي وجدنا أنه لم يشير إلى ذلك حيث يذكر أنه أثناء مفاوضاته مع الفرنسيين قام باستدعاء كل جيوش مقاطعة إقليمه إذ يقول «وقد هب جميع القادة لتلبية ندائي وأذكر من جملة من حضر: أحمد المقراني ومحمد بن عبد السلام المقراني وولد بن عبد الله المقراني وشيخ أولاد الحداد...»³.

وفي الوقت الذي كان فيه محمد بن عبد السلام في صراع مع صهره أحمد باي، ظل خصمه وابن عمه أحمد بن محمد (شيخ مجانة) مخلصاً ووفياً للباي أحمد طوال فترة حكمه للبايك، وكان إلى جانبه في كل المحن التي واجهها الباي⁴، ومن ذلك وقوفه إلى جانب الباي في الدفاع عن مقر حكمه (قسنطينة) ضد الحملة الفرنسية الأولى عام 1836⁵، حيث ذكرين أن الفرنسيين عانوا من مضايقة أحمد بن محمد المقراني وجيشه⁶.

وأثناء الحملة الفرنسية الثانية (1837) تمكن الفرنسيون من اقتحام المدينة فانتهز محمد بن عبد السلام فرصة الفوضى التي عمت المدينة، وتمكن من الفرار من السجن في يوم 13

¹ - Ernest. Mercier : le Bachagha Mokrani et les causes de l'insurrection de 1871, Paris, 1900, p11.

² - Féraud : op. cit, p304.

أنظر كذلك:

-A. Dj. Temimi : op. cit, p115.

³ - Marcel Emerit : « les mémoires d'Ahmed...», RA n° 49, 1905, p105.

راجع كذلك، محمد العربي الزبيري: مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضرية، ص 69.

⁴ - صالح فركوس: المرجع السابق، ص 289.

⁵ - لمزيد من التفاصيل حول الحملة الفرنسية على قسنطينة يراجع، عبد الكريم بجاجة: معركة قسنطينة، 1836-1837، تعريب محمد الهادي لعروق، دار البعث، الجزائر، 1984.

⁶ - Rinn: op. cit, p16.

أكتوبر من السنة نفسها والتحق بمجانة، حيث أعاد جمع القوة واستمال فرسان الحشم إلى جانبه، وأعلن نفسه الحاكم الشرعي للمشيخة في غياب خصمه أحمد بن محمد الذي كان ملازماً¹.

وعندما سقطت مدينة قسنطينة في أيدي الفرنسيين وانسحب أحمد باي إلى الجنوب وعرض عليه أحمد المقراني اللجوء إلى قلعة بني عباس أو إلى جبال المعاضيد لكن الباي فضل الذهاب إلى الصحراء حيث أقاربه أولاد بن قانة².

عند ذلك عاد أحمد المقراني مع ما تبقى معه من الرجال إلى مشيخته بمجانة لكنه وجد ابن عمه وخصمه محمد بن عبد السلام قد استولى عليها، ومنعه من الدخول إليها فلجأ إلى قلعة بني عباس التي ظل سكانها أوفياء للأسرة³ لكن رين يذهب إلى القول أن بني عباس والقبائل القريبة من القلعة منها سكان تازايرت وأزرو وقسم من إغيل علي والشوارخ⁴ أظهروا لأحمد بن محمد عداؤهم ورفضوا استقباله فلجأ إلى قبيلة بني عيديل بالمين⁵ غير أن هؤلاء كما يذكر يحي بوعزيز ناصبوه العداؤ، فلم يكتفوا برفضهم استقباله والاعتراف به كزعيم عليهم، بل أن الأمر ذهب بهم إلى أبعد من ذلك، حين قاموا بالقبض عليه وتسليمه إلى عدوه محمد بن عبد السلام الذي نفاه إلى منطقة الحضنة بعد أن تعهد له بعدم العودة ثانية إلى مجانة⁶ فاستأثر بذلك محمد بن عبد السلام بحكم مجانة لوحده.

وبناء على قول المؤرخ التونسي عبد الجليل التميمي فإن القائد الفرنسي "دوروفيقو" قد اتصل بمحمد بن عبد السلام المقراني لتأليبهم ضد أحمد باي⁷، ولكن التميمي لم يحدد التاريخ

¹ - Féraud: op.cit, p310.

² - Emerit: op. cit, p105.

أنظر كذلك: يحي بوعزيز: ثورة 1871، ص48.

وجب التذكير أن انسحاب الباي أحمد إلى الصحراء كان خطأً استراتيجياً ارتكبه، ذلك أنه وجد نفس معزولاً، وتفرق عنه الأنصار ووجد نفسه وحيداً في مواجهة عدوين الصحراء من جهة والفرنسيين من جهة ثانية فاضطر إلى الاستسلام، حيث نقى إلى قسنطينة ثم وضع في أحد السجون في مدينة الجزائر حيث مكث به حتى وافته المنية.

³ - Gaid: Mokrani, p42.

⁴ - تقع هذه القبائل بجوار قلعة بني عباس، ولا تبعد عنها كثيراً.

⁵ - Rinn: op.cit, p21

⁶ - يحي بوعزيز: المرجع نفسه، ص50.

⁷ - Temimi: op.cit, p115

الذي اتصل فيه هذا القائد بمحمد بن عبد السلام، ونعتقد أنه يقصد اتصال بن عبد السلام بالفرنسيين وليس العكس.

وحسب أبو القاسم سعد الله فإن الفرنسيين اتصلوا أيضاً بمحمد بن القندوز المقراني في محاولة منهم لتأليبهم ضد عدو أحمد باي لعلمهم بعداءه الشديد له¹، و خلاصة القول أن أسرة أولاد مقران كانت من الأسر المحلية الكبيرة التي هبت إلى الدفاع عن مدينة الجزائر ضد الحملة الفرنسية، وان انقسام الأسرة أثر في مواقفها اتجاه أحمد باي ومقاومته، حيث ظل أولاد الحاج الفرع الحاكم بمجانة وفيها ومخلصاً للباي أحمد حتى نهاية مقاومته واستسلامه.

5- الأمير عبد القادر وسياسته اتجاه أسرة أولاد مقران:

يعتبر الأمير عبد القادر² من أبرز رجال المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي، حيث اشتهر بمقاومته الاحتلال في منطقة الغرب الجزائري لمدة تزيد عن الثمانية عشر سنة (1832-1847م)، تمكن خلالها من انتزاع اعتراف فرنسا بدولته، كما تمكن من انتزاع احترام القادة الفرنسيين له لنبله وشجاعته وأخلاقه ودهائه، فكانوا يحسبون له ألف حساب³.

بعد توقيع معاهدة التافنة وضع الأمير عبد القادر استراتيجية في تعامله مع الأعيان والعلماء والمرابطين وشيوخ القبائل، فكان يرسلهم طالبا منهم الدخول في طاعته من أجل جمع كلمة الجزائريين تحت راية الجهاد، واستطاع التأثير على كثير منهم نظراً لشخصيته الكاريزماتية، وكانت نداءاته تلقى الترحيب والتفاعل، وكان حريصاً في تعيين الخلفاء والقياد على اختيار الشخصيات ذات التأثير القوي في الناس حتى يتمكنوا من فرض إرادته وأوامره⁴، وهي

¹ - أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص155 ومايلها

² - حول شخصية الأمير عبد القادر ومقاومته، أنظر:

- محمد بن عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في أخبار الجزائر والأمير عبد القادر، دار اليقظة العربية، ط2، بيروت، 1964.

أنظر كذلك:

- هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتعليق، أبو القاسم سعد الله، ش و ن ت، الجزائر، 1982.

³ - لمزيد من التفاصيل حول حياة الأمير عبد القادر وجهاده وسياسته راجع هنري تشرشل: المرجع نفسه.

⁴ - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص213.

استراتيجية ناجحة في اعتقادنا مكنت الأمير بدهائه أن يتغلغل في منطقة نفوذ تابعة للباي أحمد¹.

ولكي يسهر على تنفيذ الاستراتيجية التي رسمها كان يزور بعض المناطق بنفسه حيث سافر إلى منطقة القبائل، حيث استقبل هناك استقبالا حافلا كما يذكر الكاتب الأنجليزي هنري تشرشل الذي كتب ترجمة له تحت عنوان " حياة الأمير عبد القادر " التي ترجمها وقدمها أبو القاسم سعد الله، حيث خطب فيهم خطبة مثيرة بعد أن التفوا من حوله جاء فيها: "استيقظوا يا أهل جرجرة، وانتهوا من غفلتكم، وثقوا ان ليس في قلبي سوى الرغبة في سعادة وصلاح ورفاهية المسلمين، إن كل ما أطلبه منكم اليوم هو الطاعة والوفاق والمحافظة التامة على قوانين ديننا المقدس، لكي ننتصر على الكفار، ولا أطلب منكم لتعضيد جيشنا سوى ما فرضه الله العلي القدير." ثم واصل القول: "إنني لا أرغب في تغيير تقاليدكم ولا في تعطيل قوانينكم وأعرافكم، ولكن القيام بالعمليات الحربية يتطلب مسؤولا. إنني ادعوكم إلى الجهاد في سبيل الله، فاختاروا رئيسا عليكم، وإنني أقترح عليكم ابن سالم، فإذا اخترتموه فسيكون لكم كالبوصلة في ساعات الخطر والعسر، وإن الله شاهد على ما أقول، وإذا لم يلامس قولي هذا مكانا في قلوبكم فسيأتي يوم تندمون فيه...إنني أحاول إقناعكم بالتي هي أحسن، لا بالقوة، وإنني أدعو الله أن يهديكم إلى سواء السبيل. وعندما انتهى عبد القادر من خطبته، انطلقت صيحة عامة تقول أعطنا ابن سالم أعطنا ابن سالم، خذ منا الزكاة وخذ منا العشور وقدنا ضد الكفار، إننا أبناؤك وجنودك وخدمك"² ولما وصل إلى الونوغة قرب سور الغزلان، علم

¹ - تجدر الإشارة إلى أن الحاج أحمد باي قسنطينة كان يخوض حرب المقاومة في بايلك الشرق ضد الفرنسيين الذين حاولوا إغراءه بالمنصب والجاه لكنه رفض كل العروض التي قدمت له، وفضل الجهاد، حيث التفت حوله القبائل الحليفة للحكم العثماني، كما كان يعول على المدد الذي كان ينتظر وصوله من السلطان العثماني، لكن هذا المدد لم يصل أبدا، وكانت شعبية أحمد باي تتراجع تدريجيا حتى تفرقت عنه القبائل وظل يقاتل وحيدا حتى أعلن استسلامه في النهاية بعد أن يئس من جدوى مواصلة القتال. لمزيد من المعلومات حول أحمد باي ومقاومته راجع:

-Temimi, A. Djallil: op, cit.

- فندلين شلوصر: قسنطينة أيام أحمد باي (1832-1837)، ترجمة وتقديم أبو العيد دودو، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1977.

² - هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتعليق، أبو القاسم سعد الله، ش و ن ت، الجزائر، 1982.

بتواجهه الخصمان محمد بن عبد السلام المقراني وأحمد بن عبد السلام المقراني فأسرع كل منهما للقاءه، حاملا كل منهما هدايا ثمينة تليق بمقام الأمير، وعرض عليه كل منهما خدماته و مساعدته، طمعا في منصب الخليفة على مجانية¹، ويذكر في هذا السياق يحي بوعزيز أن الأمير عبد القادر هو من كاتب زعماء القبائل والأسر الكبيرة ومن بينهم بن عبد السلام المقراني لكي يستميلهم إلى جانبه²، ومهما يكن من أمر فقد وقع اختيار الأمير على محمد بن عبد السلام باعتباره صاحب السلطة الحقيقي على أولاد مقران، ولكون أحمد بن محمد كان صديقا وحليفا لخصمه أحمد باي، فانضم إليه صف أولاد القندوز الحاقدين على أحمد باي فحظيوا هم أيضا بقيادة منطقة الحضنة³.

ويدل اختيار الأمير عبد القادر صهر الباي محمد بن عبد السلام خليفة على مجانية على درايته ومعرفته بكل ما كان يجري من أحداث في منطقة نفوذ أحمد باي بما في ذلك الصراع الدموي الذي كان محتدما بين شيوخ أولاد مقران، فوقع اختياره على الشخص الذي يمكن أن يعول عليه في فرض سلطة الأمير على المنطقة على الرغم من علمه بأنه صهر للباي، فكان على علم كذلك بالخصومة التي كانت بين الباي وصهره. وهذا يدل مرة أخرى على ذكاء الأمير ودهائه.

ولكي ينظم الأمير دولته قسمها إلى ثمان ولايات كل منها تسمى مقاطعة، على رأس كل منها والٍ يحمل لقب الخليفة، يساعده أغوات على الدوائر والقياد والقبائل والشيوخ على العشائر، وهذه الولايات هي: تلمسان ومعسكر ومليانة والتيطري وحمزة ومجانة التي جعل عاصمتها سطيف⁴، والزيبان والصحراء الغربية⁵.

¹ - محمد بن الأمير عبد القادر: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1، الإسكندرية، 1903، ص200.

² - محمد بن الصالح العنتري: فريدة منيسة في حال دخول الترك قسنطينة واستيلاءهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مراجعة وتقديم وتعليق، يحي بوعزيز، د. م. ج، الجزائر، 1991.

³ - محمد بن الأمير: المرجع نفسه، ص200.

⁴ - محمد العربي الزبيري: الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر، ش و ن ت، الجزائر، 1982، ص126. أنظر كذلك، أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، م. و. ك، الجزائر، 1992، ص 166 ومايلها.

⁵ - يحي بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص156.

إن من أهداف الأمير عبد القادر من وراء عقده معاهدة التافنة مع الفرنسيين في ماي 1837¹ ربح مزيد من الوقت من أجل إعادة ترتيب أمور دولته وجيشه، كما كان يخطط إلى مد نفوذه إلى بايلك الشرق بعد الإطاحة بأحمد باي، فبدأ فعلا في مراسلة الأعيان في هذا البايك طالبا منهم الإنضواء تحت سلطته²، وكان الأمير عبد القادر يهدف من وراء إنشاءه إقليم مجانية إلى إثبات شرعية نفوذه على قسنطينة القديم، وقد كان الخليفة الذي يعينه الأمير يتمتع بسلطات واسعة في حدود إقليمه تتمثل في جمع الضرائب وإقامة الحدود، وإجراء القضاء بين الناس، وحماية الأمن والمواطنين ومحاربة العدو، ولم تكن مدة تعيين الخلفاء محددة، وكان الخلفاء هم من ينقل تعليمات الأمير إلى الأغوات³.

ويبدو أن سلطة الأمير عبد القادر في الأقاليم الأربعة الجديدة التي أستحدثها ومنها مجانية كانت لا تُنفذ ولا تُحترم حسب ما يذكر أبو القاسم سعد الله، فخليفة مجانة محمد بن عبد السلام المقراني منذ تعيينه عام 1837 كان من أقوى الخلفاء وأسرته من من أكبر العائلات في الإقليم؛ ولكن بسبب بعد المسافة ومضايقة الفرنسيين له من بجاية وقسنطينة، والصراع الذي كان شديدا بين فروع الأسرة جعل سلطة الأمير بالإقليم ليست قوية⁴.

والظاهر أن الأمير عبد القادر كان يراقب خلفاؤه وقادة جنده مراقبة شديدة فكان يعزل كل من يُثبت عجزه أو سوء تسييره، ومن ذلك قيامه بعزل محمد بن عبد السلام المقراني خليفة مجانية وتعويضه بخليفة آخر ليس من شيوخ الأسرة بعد أن راودته شكوك في اتصاله بالفرنسيين⁵.

والسؤال الذي يطرح هل كان لامتداد نفوذ الأمير إلى منطقة نفوذ أسرة المقرانيين تأثير على علاقة شيوخ الأسرة ببعضهم البعض؟ وعلى علاقتهم بصهرهم الحاج أحمد باي، وبالفرنسيين؟

¹ - انعقدت هذه المعاهدة بين الأمير عبد القادر والجنرال بيجو le général Bugead وكان لكل منهما أهدافه التي كان يرمي إليها، ومكنت المعاهدة (الهدنة) الطرفين من كسب مزيد من الوقت الذي كانا في حاجة ماسة إليه من أجل إعادة ترتيب الأمور والاستعداد لما هو آت.

² - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992، ص 18.

³ - أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص 211.

⁴ - أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص 212.

⁵ - المرجع نفسه، ص 213.

إن تأثير تدخل الأمير في المنطقة التابعة لنفوذ المقرانيين يظهر جلياً من خلال عودة الصراع والقتال بين الخصمين محمد بن عبد السلام وأحمد بن محمد أكثر ضراوة وقوة، عقب تعيين محمد بن عبد السلام خليفة على مجانة من طرف الأمير عبد القادر، حيث قرر خصمه العنيد أحمد بن محمد منع خليفة الأمير عبد القادر محمد بن عبد السلام من الدخول إلى مجانة، وذلك بعد أن استعان بقوة من قبائل حوض الصومام وبني عباس تمكن من استمالتها إلى جانبه، في حين كان محمد بن عبد السلام يعتمد على قبيلة الحشم وأولاد ماضي وبعض مرابطي المنطقة، وقام حينها بن عبد السلام بتجريد صف أولاد الحاج من كل القوة والنفوذ الذين كانوا يتمتعون به في مجانة والمناطق المجاورة لها¹.

ومن ثمة يمكن القول أن الصراع بين أحمد باي والأمير عبد القادر كان له تأثير كبير في صراع شيوخ أولاد مقران، حيث ازداد هذا الصراع عنفواناً وتأججاً.

6- مرحلة استسلام المقرانيين وتعاونهم مع الفرنسيين:

الظاهر أن ضياع مشيخة مجانة من أحمد بن محمد جعله يشعر بالتهميش والإقصاء وضياح النفوذ والسلطة نتيجة إبعاده عن مجانة كما رأينا، فدفعه هذا الشعور إلى التفكير بجدية في وسيلة تمكنه من استرجاع ما كان يعتقد أنها حقوقه اغتصبت منه ولو اقتضى الأمر التحالف والتعاون مع العدو الفرنسي، وتحت تلك الظروف العصبية راودته فكرة الاستسلام والخضوع للفرنسيين، فاتصل بصديقه بوعكاز بن عاشور² شيخ فرجية، وأعرب له عن نيته في الاستسلام، ثم كتب إلى الخليفة علي بن باحمد الذي كان قد دخل في خدمة العدو والذي شجعه على المضي في هذا الطريق، وطلب منه الذهاب إلى الفريق غالبوا (Galbois) في قسنطينة دون خوف أو تردد، فذهب إليه في أوائل جويلية 1838، فقام هذا الأخير بتعيينه في بداية الأمر قائداً على قبيلة أولاد عامر ناحية سطيف بصفة مؤقتة. وكان الفرنسيون قد عينوا بن هاني بن يلس خليفة على مشيخة مجانة³، كرد فعل على تعيين محمد بن عبد السلام على

أنظر كذلك، ناصر الدين سعيدوني: «العلاقة بين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي وانعكاسها على المقاومة في أوائل عهد الاحتلال»، مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، عدد الثاني، 1986، ص 57 وما بعدها.

¹ - Charles Féraud: op, cit, p311.

² كان الشيخ بوعكاز بن عاشور يقاتل إلى جانب الباي ولما سقطت مدينة قسنطينة في أيدي الفرنسيين أعلن خضوعه للفرنسيين وتعاونهم معهم.

³ - Colonel Robin: l'insurrection de la grande Kabylie en 1871, Alger, 1901, pp96-98.

هذه المشيخة من طرف الأمير عبد القادر، وكان هدفهم ضرب الأسرة ومشيخة مجانة في آن واحد.

وقد تلقى أحمد بن محمد المقراني تعيينه قائدا على أولاد عامر بمرارة لأنه كان يرى أنه منصب دون مستواه لكنه أظهر للفرنسيين ولاءه كخطوة أولى في سبيل تحقيق ما كان يطمح إليه من استعادة مكانته ونفوذه، ولم يمض وقت على ذلك حتى تم تعيينه في منصب خليفة مجانة، وذلك بعد مقتل بن هني بن يلس في إحدى المعارك التي كان يخوضها الجيش الفرنسي ضد قبيلة ريغة القبالة في في نواحي سطيف في سبتمبر من نفس السنة¹، حيث قام الجنرال فاليفالي (Valée) شخصيا بتنصيبه في يوم 24 أكتوبر عام 1838 في حفل بهيج بقصر الباي بقسنطينة، ووقع الخليفة على وثيقة التعيين بعد أن أدى اليمين بحضور عدة شخصيات وطنية وفرنسية مهمة².

وقد باشر الخليفة أحمد بن محمد المقراني المهام المنوطة به دون أن يلتحق بمركز المشيخة بمجانة التي لم يلتحق بها إلا بعد عام من تنصيبه، وذلك بسبب وجود خليفة الأمير عبد القادر محمد بن عبد السلام بها، وخضوعها إلى سلطة الأمير، وكان الخليفة محمد بن عبد السلام مدعما بجيش نظامي يتكون من 300 جندي من المشاة النظاميين، و50 فارسا نظاميا، بالإضافة إلى أفراد فرع أولاد عبد السلام وأولاد القندوز المتعاونين معه³، وكانت السلطة الاستعمارية بلا شك تهدف من وراء ذلك إلى ضرب ابن عمه خليفة الأمير عبد القادر على نفس المشيخة⁴، كما كانت تهدف إلى الحد من قوة الأسرة حتى لا تشكل أي خطر عليها مستقبلا وذلك في سياق مبدأ فرق تسد الذي اتبعته الإدارة الاستعمارية مع القبائل والأعراس. وهكذا وضع أحمد بن محمد المقراني نفسه في خدمة السلطات الاستعمارية التي وضعت سياسة جديدة تتمثل في التعامل مع الأسر الكبيرة ذات النفوذ، وذلك بتمكينها من

¹ - قتل بن يلس في إحدى المعارك التي كان يخوضها الجيش الفرنسي ضد ريغة القبالة لإخضاعها.

² - Louis Rinn: op, cit, p23.

أنظر كذلك :

Bourde Paul: à travers l'Algérie, G. Charpantier, Paris, 1880, p175.

³ - محفوظ قداش: « جيش الأمير عبد القادر، تنظيمه وأهميته»، ترجمة حسن بن مهدي، مجلة الثقافة، تصدرها وزارة الثقافة بالجزائر، عدد 75، 1983، ص 65.

⁴ - Ch. Féraud: op.cit, p312.

الحفاظ على الامتيازات التي كانت تتمتع بها خلال العهد العثماني، مقابل تعاونها معها في التوسع والقضاء على المقاومة.

ونخلص إلى القول في الأخير أنه كان للصراع بين شيوخ أسرة أولاد مقران، دورا في انقسام مواقف الأسرة من مقاومة أحمد باي، ومن الاحتلال الفرنسي، وكان من نتائج ذلك الصراع استسلام أحمد بن محمد الذي مكن الاحتلال من إخضاع الأسرة بجميع فروعها، ويمكننا القول أيضا أن استسلام أحمد بن محمد للفرنسيين لم يكن حبا فيهم أو ضعفا في إيمانه، أو نقصا في شهامته وشجاعته، وإنما كان بهدف الاستعانة بهم ضد أعدائه من أفراد الأسرة، كما أن خصمه محمد بن عبد السلام انضم إلى صف الأمير عبد القادر بهدف القضاء عليه، ونكاية في أحمد باي، وفيما يتعلق باستسلام كل فروع الأسرة فقد حدث ذلك بعد أن ضاقت بهم السبل وحاصرتهم القوات الفرنسية من كل جهة.

وقد كان للزيارات التي قام بها الأمير عبد القادر لبعض المناطق في بايلك الشرق في إطار البحث عن توسيع منطقة نفوذه، والبحث عن حلفاء جدد يقوي بهم دولته في الصلح بين كثير من المتخاصمين وجمع كلمتهم على قتال العدو الفرنسي، كما تمكن بفضل تحالفه مع محمد بن عبد السلام المقراني من بسط سلطته على مناطق واسعة من إقليم الشرق، رغم أن ذلك لم يدم طويلا حيث انقلب عليه هذا الأخير بعد عزله عن منصب خليفة مجانية وأصبح من خصومه¹.

خاتمة:

يبدو أن حلول عام 1838 جلب معه المصائب لكل من أحمد باي الذي انسحب إلى الصحراء ليواصل المقاومة من هناك، ونزلت المصائب كذلك على الأمير من خلال بداية ضياع الأقاليم التي كان يسيطر عليها، فقد عين الفرنسيون عددا من الخلفاء كانوا من رجال أحمد باي، وعينوا محمد بن عبد السلام المقراني خليفة على مجانية، وهو الذي عينه الأمير خليفة عليها ثم عزله.

كما سبقت الإشارة إلى ذلك، والظاهر أن استراتيجية الفرنسيين كانت في كسب خلفاء كل من الأمير وأحمد باي وخصومهما بفضل سياسة الإغراء وهذا ما حصل مع أسرة المقراني وبن قانة حكام الصحراء.

¹ - محمد بن الأمير عبد القادر: المصدر السابق، 218.

و يدل على المكانة والنفوذ الذي كانت تحظى به أسرة المقرانيين في المنطقة الغربية لبايك الشرق الجزائري حرص الجميع على الارتباط بالأسرة بدءاً بالأتراك، ثم أحمد باي والأمير عبد القادر، ونهاية بالفرنسيين الذي استفادوا كثيراً من خدمات خليفة مجانية أحمد المقراني وهو والد البشاغا الحاج محمد زعيم ثورة 1871، إذ بفضل مساعدته تمكنوا من ربط إقليم الشرق بمدينة الجزائر بعد عبور منطقة البيبان (1839) التي يفترض أنها تابعة لنفوذ الأمير الذي اعتبرها نقض واضح لبنود معاهدة التافنة وبالتالي قرر محاربتهم لأنهم اعتدوا على حدود دولته.

* قائمة المراجع:

1. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992.
2. أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة عام بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، ش.و.ن.ت، الجزائر، بدون تاريخ.
3. أرجمند كوران: السياسة العثمانية اتجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ترجمة عبد الجليل التيمي، ط2، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1970.
4. جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري، من القرن ال16، إلى القرن ال19، رسالة ماجستير معهد العلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 1990/1991.
5. حمدان خوجة: المصدر. وعبد الجليل التيمي: بحوث ووثائق في التاريخ المغربي (1816-1871)، ط1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972.
6. حميدة عميراي: دور حمدان خوجة: في تطور القضية الجزائرية (1827-1840)، ط1، دار البعث، قسنطينة، 1987.
7. شارل روبر أجرون: تاريخ الجزائر المعاصرة، ج2، من انتفاضة 1871 إلى اندلاع حرب التحرير 1954، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.
8. صالح فركوس: الحاج أحمد باي قسنطينة (1823-1850)، د م ج، الجزائر، 1993.
9. عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعني: التاريخ المعاصر-أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2014.

10. عبد الكريم بجاجة: معركة قسنطينة 1836-1837، تعريب محمد الهادي لعروق، دار البعث، الجزائر، 1984.
11. عمار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، ص108-109.
12. عمار هلال: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1962)، د. م. ج، الجزائر، 1995.
13. فنديلين شلوصر: قسنطينة أيام أحمد باي (1832-1837)، ترجمة وتقديم أبو العيد دودو، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1977.
14. لخضر بوطبة: أسرة أولاد مقران خلال العهد العثماني (1837-1518)، رسالة ماجستير (غ. م)، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة 2006.
15. مجهول المؤلف: غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر، الجزائر، 1934.
16. محفوظ قداش: جيش الأمير عبد القادر، تنظيمه وأهميته، ترجمة حسن بن مهدي، مجلة الثقافة، تصدرها وزارة الثقافة بالجزائر، عدد 75، 1983.
17. محمد بن الأمير عبد القادر: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1، الإسكندرية، 1903.
18. محمد بن عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في أخبار الجزائر والأمير عبد القادر، دار اليقظة العربية، ط2، بيروت، 1964.
19. محمد العربي الزبيري: تاريخ الجزائر المعاصر، ج1، منشورات اتحاد الكتاب العرب، القاهرة، 1999.
20. محمد العربي الزبيري: الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر، ش و ن ت، الجزائر، 1982.
21. محمد العربي الزبيري: مذكرات أحمد باي و حمدان خوجة وبوضربة، م و ن ت، الجزائر، 1973.
22. ناصر الدين سعيدوني: عصر الأمير عبد القادر، مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2000.
23. هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتعليق، أبو القاسم سعد الله، ش و ن ت، الجزائر، 1982.

24. يحي بوعزيز: **كفاح الجزائر**، م. و. ك، الجزائر، 1986.
25. يحي بوعزيز: **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، دار الهدى، الجزائر، 2009.
- باللغة الأجنبية:
26. Charles Féraud: « **Histoire des villes de Constantine – Bordj Bou Arreridj**», in, R. S. A. C, Constantine,
27. Colonel Robin: **l'insurrection de la grande Kabylie en 1871**, Alger, 1901 .
28. Bourde Paul: **à travers l'Algérie**, G. Charpentier, Paris, 1880, p175.
29. Ernest. Mercier : **le Bachagha Mokrani et les causes de l'insurrection de 1871**, Paris, 1900.
30. Louis Rinn: **Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie**, Librairie Adolphe Jordan, Alger, 1891 .
31. -Marcel Emrit:« **les mémoires d'Ahmed Bey dernier Bey de Constantine**», in, **R.A**, n:°8, 1863.
32. Marcel Emerit : « **les mémoires d'Ahmed Bey dernier Bey de Constantine**», **RA** n° 49, 1905.
33. Mouloud Gaid : **Mokrani, édition Andalousse**, Alger, 1993.
34. 1872
35. Pierre Boyer: «**la Conquête de l'Algérie**», in, Initiation à l'Algérie, Librairie
36. d'Amérique et d'Orient, Paris, 1957.
37. Temimi, A. Djallil: **le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey, (1830-1837)**, Tunis, 1978.

متابعات
